مجال الصراع بين اللهجات والفصحى

بقلم محمد عيد

ظاهرة خطيرة تبدو في علاجنا لقضايانا الهامة ، فنحن لانصل فيها الى حل حاسم ، بل تبقى معلقة تتناوشها اراء غير المتخصصين ، وكلما زاد هؤلاء الحاحا في مسألة من مسائلنا القومية او اللغوية او الادبية ، ازدادت المسألة تعقيدا واضطرابا وسوقية ، لانهم يتحدثون في تلك المسائل بدون منهج مدروس او ثقافة عميقة ، يدفعهم للحديث نوع من العناد او العواطف الكاذبة او حب الظهور . فيأتي حديثهم فجا لا فكر فيه ولا خصوبة ، وترهبنا العناوين ، وضحة الالفاظ التي لاتثبت امام الفكر والحقيقة ... وهكذا اتعبنا هؤلاء مع « الشعر الحر والتقليدي » و « مسؤولية الاديب والناقد » و « اللغة والقومية » و « العامية والفصحى » تلك التي شغلت في الاونة الاخيرة الصحف ... والعقول .

ولقضية العامية والفصحى مظاهر ثلاث ، تختلط في اذهان المتحدثين عنها من ناحية ، وتختلط عليهم نتائجها من ناحية ثانية ، فاذا حددت كل قضية منها ، واطارها الذي تدور فيه ، وجدنا امامنا ارض المعركة ، ومجال الصراع ، فنتحدث حينئذ عن رؤيا فكرية صحيحة .

والمظهر الاول هو : طبيعة وجود اللهجات العامية بجانب العربية المشتركة ، وهل في هذا الوجود خطر على احدهما ؟... واقرر اولا قضية لغوية يعرفها المتخصصون جيدا بأن اللغة ظاهرة اجتماعية خطيرة ، ان لم تكن اخطر الظواهر الاجتماعية على الاطلاق ، فموقف المتكلم من اللغة موقفه من العادات والتقاليد والدين واللابس وطريقة المعيشة في المجتمع الذي يعيش فيه ، وفي ذلك يقول Vendryes :« ففي كل مجتمع مهما كانت طبيعته وحجمه تلعب اللغة دورا ذا اهمية اساسية ، اذ هي اقوى الروابط بين اعضاء هذا المجتمع ، وهي في الوقت نفسه رمز لحياتهم المشتركة وضمان لها».. فاللغة اذن احدى الخصائص الهامة للجماعات البشرية ، فهل من طبيعة لغة من اللغات ان توجد وحدها فصيحة مشتركة ، ولا شيء غيرها ؟ أم ان من طبيعة اللغات ان توجد المشتركة ومعها لهجاتها العامية مع اختلاف النسبة بين اللغات في ذلك ؟ ان صلتنا باللغات الاجنبية وثقافتها كالانجليزية والفرنسية تسمح لنا بان نقول : أن اللغة المشتركة العامة المستعملة في الثقافة والعلوم والاذاعة والصحف والحديث الجدي تعيش بجوارها لهجاتها المحلية التي يتحدثها رجل الشارع والمثقف في حياته العادية ، وعلى سبيل المثال في اللغة الانجليزية تختلف لهجة اسكوتلندا عن لهجة انجلترا اختلافا بينا في نطق بعض الكلمات ، فمثلا في كلمة Start ينطق اهالي « اسكوتلندا » الحرف R ولا ينطقه اهالي « انجلترا » فاذا تعلم « الاسكوتلندي » الفصيحة منع من ذلك النطق ، ويختلف الامريكيون عن «الانجليز في تفخيم وترقيق الحرف A فمثلا الكلمات Halt و Night و Ican مفخمة عند الانجليز ومرققة عند الامريكيين .

وفي لغتنا العربية وجدت اللهجات بجوار اللغة الفصيحة قديما وحديثا ، واعترف بها العلماء دون خوف . يقول ابو سعيد السيرافي شارح كتاب سيبوية متحدثا عن نظم الكلام العربي : « معاني النحو (١) منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك . وتجنب الخطأ من ذلك ، وان زاغ شيء عن هذا النعت ، فانه لايخلو ان يكون سائغا بالاستعمال النادر ، والتأويل البعيد ، او مردودا لخروجه على عادة القوم الجارية على فطرتهم ، فأما مايتعلق باختلاف القبائل فذلك شيء مسلم لهم ، ومعروف عنهم (٢) » ويرحب الجاحظ بنوادر العامة في عصره ، ويرى ان تؤخذ كما نطقت بلهجة متحدثيها ، ويحذر من استعمال الاعراب فيها فيقول : « واذا سمعت نادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فاياك وان تستعمل فيها الاعراب او ان تتخير لها لفظا حسنا ، او ان تجعل لها من فيك مخرجا سويا (٣) » ويروي صاحب الخصائص عن ثعلب قوله : « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتلة بهراء » .

فاللهجات قد وجدت على مدى العصور ، ووجدت المشتركة او الفصيحة مع تلك اللهجات ، في الجاهلية وفي الاسلام ، في العصور الوسطى وفي عصرنا الحديث ، في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات ، ولا يعنينا في هذه القضية ماخاض فيه اللغويون القدماء والمحدثون في فروضهم للتطور اللغوي بينهما ، وايهما كان سببا في الاخر ، أكونت المشتركة اللهجات ؟ ،او تولدت اللهجات من المشتركة ؟ فكلا الفرضين في حاجة الى مناقشة طويلة، ومجاله تاريخ التطور اللغوي ـ كما ذكرت ـ ذلك العلم الذي يحاول فيه اللغويون المحدثون من مستشرقين وعرب تصور الفروض ، وتأييدها بالنظريات المستخلصة من ظواهر الصراع بين اللغات الحديثة ، وذلك لقلة عناية العرب القدماء بتلك الناحية دراسة او تسجيلا ، وقلة الاشارات المحددة لذلك زمانيا او مكانيا في المعاجم العربية .

لقد وجدت الفصيحة آذن ، وعاشت مع اللهجات جنبا الى جنب ، ومن الطبيعي ان كلا منهما عبرت عن مشاعر وافكار من نوع خاص ، فاللهجات المحلية استعملت قديما وحديثا في شؤون الحياة العادية من المثقفين وغير المثقفين والذي لاشك فيه كذلك انها انتجت ادبا خاصا بها ، كان مظهره في تلك الملح والنوادر التي يشير اليها الجاحظ في

---

(١) يقصد بالنحو نظم الكلام ، لا قواعد اللغة

(٢) الامتاع والمؤانسة جـ ١ ص ١٢١

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١١١

نصه السابق ، وفي غير موضع من كتابه « البيان والتبيين» وكذلك الازجال والموالبا وبعض مظاهر النطق في الاشعار والامثال القديمة ، وفى ايامنا هذه في المواويل والاغاني والازجال والامثال والملاحم الشعبية التي تغني على الربابة ـ والفصيحة كانت وما زالت ترجمان الثقافة والفكر فانتجت ذلك التراث الزاخر بين ايدينا من مطبوعات ومخطوطات علمية وادبية ، وهى طوع المتمكنين منها للحديث بها في المجالات الجدية الراقية ، فى الخطابة والمحاضرات والنشرات ، وكثير من مواد الاذاعة وكما يقول الاستاذ محمود تيمور : « ان الدعوة الى تسويد الفصحى تطاوع تلك المشاعر النفسية في الامة ، وتجاري الدافع الطبيعى للرقي الاجتماعي ، وكل دعوة تتغاضى عن النزعة النفسية العامة ، وتستخف بالطبائع الاجتماعية الدافعة دعوة ذاهبة مع الريح » (٤) .

وهنا .. نجد انفسنا امام الجانب الثاني من القضية . وهو دراسة وبحث كل من اللهجات واللغة المشتركة ، فهل نقتصر فقط على اللغة الفصيحة ندرس لغتها وادبها ؟ او ندرس كلا المظهرين الاجتماعيين بلا محاباة ؟؟ والجواب لايحتاج الى كبير عناء ، وقد فرضت الحوادث نفسها في تلك القضية ، فانتاج الفصيحة من علم وفن قد درس قديما وحديثا ، واما الانتاج العامي الشعبي فقد درس قديما من الناحية اللغوية ، ولكنه خرج عن مجاله كما سنرى في معالجة المظهر الثالث ، وبين ايدينا بعض الاثار القليلة التي سجلت مظاهر ذلك التراث ، ومن ذلك كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني « ٣٣٤ هـ » و « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » للمقدسي « ٣٧٥ هـ » وبعض الشواهد المبعثرة في كتب النحو والمعاجم وبعض المخطوطات التي سجلت بعض القصص والحوار الشعبي الذي كان يلقي مع عرض الشخوص المعروفة « بخيال الظل » في عهد المماليك، ولكن تلك الاثار قليلة جدا من ذلك الطوفان الشعبى الذى اندثر لعدم العناية بتسجيله.. ولذلك كانت اليقظة الحديثة للعناية باللجهات ودراستها من الناحيتين اللغوية والادبية، ففى جامعة القاهرة معمل للاصوات (٥) اللغوية ، المقصد منه دراسة اللهجات ، وكرسي للادب الشعبي (٦) وبين لجان المجلس الاعلى للفنون والاداب لجنة خاصة بالادب الشعبي لتشجيعه ورعايته وفي وزارة الثقافة ادارة خاصة بالفنون الشعبية .

ولا خطر مطلقا من دراسة كلا المظهرين في لغتنا ولا خطورة على احداهما من تلك الدراسة بل في ذلك استكمال لنقص في ثقافتنا ، واتمام لحلقة فقدت قديما في ابحاثنا اللغوية والادبية .. والتحفظ الوحيد لتلك الدراسة ينبع من داخلها بان ندرس كلا منهما في مجاله الخاص كظاهرة طبيعية لعواطف وأفكار خاصة .. وبذلك نفهم طبيعة ذلك الموقف الحاد الصاخب الذي تعالج به الدكتورة « بنت الشاطيء » هذه القضية ، فتقول : « احدى اثنتين : ان كانت العامية مرضا ورجسا فان اي ترخص في استعمالها جريمة في حق الوطن ، واي اعتراف بادبها الشعبي ، أو عناية بتراثنا منه خيانة للامة ، وثغرة في بناء النهضة .. اما اذا كانت الدولة قد اعترفت بالعامية في ادبنا الشعبي الذي تشجعه وترعاه ، وتستنقذ تراثه من الضياع ، وهي تقدر ان هذه العامية اداة التأثير الوجداني في الشعب ، والاتصال به ، والنفوذ اليه ، وطريق الفهم لمزاجه وعواطفه وتاريخه ، فقد وجب ان توضح الهيئات الثقافية المسئولة موقفها منه(٧) . فهي توقفنا (بامـا) هذه موقف الخيار فيما لا خيار لنا فيه، والامر لديها امر ترخص .. ودولة .. وهيئة مسئولة ، لا امر ظواهر اجتماعية تدرس في مجالاتها الطبيعية ، كما سنرى في علاج الجانب الثالث من القضية وهو « التعاون بين المظهرين اللغويين » كما يسميه المتسامحون .. او « الخلط بينهما » كما يراه المحافظون ، او « الصراع بينهما والانتصار لاحداهما كما يدعو لذلك غير المتخصصين ، ومظاهر هذا التعاون أو الخلط او الصراع ـ حسب ما تراه كل طائفة ـ تبدو في مظهرين هما الدراسة والاستعمال .

فمن الناحية الاولى يجب ان يحدد الدارس مجاله الذى يدرسه ، فاللغوي الذى يدرس لهجة من اللهجات او الدارس الادبى الذي يتناول مظاهر الفنون الشعبية المختلفة لهمجاله الخاص به، وهو متفرد في بحثه عن ذلك الذى يتناول عملا ادبيا عالجته اللغة الفصحى ، او يستنبط ظاهرة لغوية من استقرائه للغة الادبية المشتركة ، والخطورة هو في الخلط الدراسي بينهما اثناء البحث ولنا على ذلك دليل واضح فيما صنعه اللغويون القدماء ، اذ خلطوا بين الفصيحة واللهجات في الدراسة فخلفوا لنا

(٤) مشكلات اللغة العربية
(٥) بكلية دار العلوم .
(٦) بكلية الاداب .

(٧) ملحق جريدة الاهرام في ١٩٦١/٦/٢٣

هيروشيما حبيبي ...

ماساة الحرب .. والحب !

قصة رائعة بقلم مارغريت دورا اخرجت في فيلم ما يزال يثير حتى اليوم ضجة كبيرة في اوساط العالم ويشهد اقبالا لم تعرفه الا أفلام رفيعة نادرة .

ولم يسبق لقصة ان عبرت كهذه القصة تعبيرا دقيقا رائعا عن الصلة التي تربط بين الحب والحرب من حيث عنصر الفاجعة .

والواقع ان المؤلفة قد وفقت توفيقا كبيرا في رسم نفسيتي الرجل الياباني والمراة الفرنسية اللذين يعيشان هذه المأساة : ماساة الحرب .. والحب !

الثمن ١٥٠ ق.ل منشورات دار الاداب

تركة مثقلة بالاخطاء المنهجية ، نضل في تعرف وجه الحق والصواب فيها ، فعلماء اللغة القدماء قد دونوا كل ما سمعوه من اللهجات العربية ، او كما يقول الاستاذ احمد أمين « اعتبروا اللغة العربية وحدة مع اختلاف القبائل الفاظا وتراكيب ولهجة » (٨) او كما يقول السيوطي في المزهر معددا قبائل كثيرة دونت لغاتها .. ان الذين نقلت عنهم اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم اخذ اللسان العربي من قبائل العرب هم قيس وتميم واسد . ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين » (٩) . فماذا كانت نتيجة ذلك ؟ لقد كانت نتيجته الخلط والاشتراك في معاني الالفاظ في المعاجم العربية حتى ان اللفظ قد يطلق احيانا على معاني لا صلة بينها ، وكان من نتيجته كذلك تلك الاراء الكثيرة المتعارضة في كتب النحو ، يعتمد كل رأي منها على شواهد منسوبة للهجات مختلفة ، وليس هنا مجال التعداد التطبيقي لذلك ، ولكني اسوق ذلك دليلا على ما يمكن ان يؤدي اليه الخلط الدراسي بين المظهرين .. فقط يمكننا أن نستعين بنتائج دراسة اللهجات الآن اذا وجدنا فيها عناصر او الفاظا عربية اصيلة، فنشيع استعمالها في اللغة المشتركة ، فنرد اليها اعتبارها، ونستغلها في تلك اللغة .

واما الناحية الثانية من الخلط بين المظهرين فهي استعمال اللهجات في مجالات الفصيحة او العكس ، وربما كان اهم فن ادبي يقع فيه ذلك الان هو « فن القصة » ـ وقد قلت فيما سبق : ان العامية تستعمل في التعبير عن الافكار الدارجة والمواقف العادية ، ويبدو ان التهجم على ذلك الفن الادبي ممن لا يحسنونه قد دفعهم الى نقل تلك الافكار والمواقف فيما يكتبون من قصص ، فكثير منها يدور حول المقاهي.. والاحياء البلدية ، و « الشاويش عوكل » و « عمى مدبولي» الى اخر ذلك مما يسأل عنه من يجلسون في مواضع التحكيم بين قصص الناشئين ، ولذلك كان من الطبيعي ان يستعملوا في ذلك اللهجات العامية ، فاصبحت قصصهم بلا موضوع ولا لغة .

واما القصص الفنية الراقية التي يلجأ اصحابها الى استعمال العامية في الحوار فيها ـ مع افتراض حسن النية وألتمكن من اللغة ـ فاني اسائلهم : اتبيحون لي ان استعمل الفصيحة في مجالات الحديث العادي ؟ وهل تضمنون لي ـ ان فعلت ـ الا يسخر مني المجتمع واذا لم نستطع التهجم على المجالات العامية باللغة الفصيحة، فبأي حق نستعمل اللهجات في مجالات الفكر .. والفن.. والابداع ؟ على ان هناك وسيلة اخرى للحوار باللغة الفصيحة لا تبعد بنا كثيرا عن الاداء النفسي واللغوي للطبقات الشعبية ، وهي استعمال الجمل القصيرة على أن تكون الفاظها من العربية التي تدور بين العامة ، ولاضرب لذلك مثلا من قصة « وديعة الله » لقصاص ناشيء ، حيث يتحدى جماعة من التجار عن زميل لهم نال بامانته الثراء والثقة .

ـ ان الحاج عبد الرحمن رجل فاضل .. يشكر الله في امواله ، فيحسن الى الناس .

ـ صدق الله العظيم .. لئن شكرتم لازيدنكم

ـ انه يعاون المحتاجين في الحي ، ويفتح محلات صغيرة للتجارة ، ويسر العمل للناس

ـ هكذا يكون الرجال .. اللهم زده من نعمتك ، وأكثر من امثاله

واعتقد ان العامة ـ خصوصا والامية في طريقها للزوال من مجتمعنا ـ يتحدثون بمثل هذه الجمل وتلك الالفاظ مع التغاضي عن بعض الخصائص الصوتية ... واعراب الكلمات .

فهلا تركنا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، فلم نخلط بين المظهرين الا بالقدر الذي لا يمس الصيغ والنظم في اللغة المشتركة ، وتوافق في نفس الوقت على ضمه لاسرتها وتنظيماتها ؟

تلك هي المظاهر الفكرية الثلاثة التي خلط بينها من تناولوا الموضوع ، وقد واجهتها في هذا المقال ، فبينت، إنه لا خطر في وجود العاميات بجانب المشتركة ، ولا في دراسة كلا المظهرين في لغتنا ، وليس في ذلك ثنائية لغوية او دراسية ، لان طبيعة وجودهما تتفق مع كل الظواهر الاجتماعية من ناحية ، وتتفق مع طبائع اللغات بصفة خاصة من ناحية اخرى ، والخطر فقط في الخلط بينهما في الاستعمال او الدراسة نتيجة التعمد أو القصور وبذلك انكشف مجال الصراع في تلك القضية ، وقد بينت وجه الرأي فيه .

محمد عيد

(٨) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٥٢

(٩) المزهر ج ١ ص ١٠٤

مراجع المقال :

١ ـ مستقبل اللغة العربية المشتركة — الدكتور : ابراهيم انيس

٢ ـ الخصائص ج ٢ — لابن جني

٣ ـ المزهر في علوم اللغة ج ١ — السيوطي

٤ ـ البيان والتبيين — الجاحظ

٥ ـ مشكلات اللغة العربية — الاستاذ : محمود تيمور

٦ ـ قضايا الفكر في الادب المعاصر — وديع فلسطين

٧ ـ اللغة بين المعيارية والوصفية — دكتور : تمام حسان

٨ ـ اللغة — فندريس : ترجمة الدكتور عبدالحميد الدواخلي

٩ ـ الامتاع والمؤانسة — ابو حيان التوحيدي : تحقيق الاستاذ احمد امين

١٠ ـ ضحى الاسلام ج ٢ — الاستاذ احمد امين

١١ ـ مقالات نشرت بجريدتي الاهرام والجمهورية

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربية

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب ـ بيروت